أعطني جيشاً قوياً

اعطك أمة سليمة الجسم والخلق

فى سنة ١٩٢٤ كان المغفور له سعد زغلول يتهيأ للمفاوضة مع مستر مكدونالد لحل القضية المصرية ، وقد اجتمع قبل سفره مع مستشاريه لوضع الأسس الأولى للنظرية المصرية فى القضية ، والمبادئ التى تقوم عليها المفاوضات من الجانب المصرى .

وقد علمت أن دولته حين سأل أحد المستشارين العسكريين عن رأيه فى أسس الاتفاق كما سأل الآخرين ، كان معنى ما أجاب به : "يا دولة الباشا، أنا رجل عسكرى لا أفهم كثيرا فى التفصيلات السياسية والدبلوماسية ، ولكننى أقول : أطلق لنا حرية تكوين جيش مصرى كما نشاء ، وسلم بكل شىء آخر ، وعند ما يكون لنا جيش قوى كبير كامل العدة نستطيع أن نصلح جميع الأخطاء ونتدارك كل ما فات " .

وهذه نظرية صحيحة ، تزداد صحتها بروزا فى هذه الأيام التى تلعب القوى المادية فيها الدور الأول على مسرح الحرب والسياسة والاقتصاد والاجتماع .

والحديث عن الجيش وحاجة كل أمة اليه للذود عن كيانها نافلة فى هذا العصر أو بديهية لا تستحق المناقشة ؛ وما إلى هذا قصدت حين انتويت الحديث عن "قوة الجيش" إنما أردت أثر هذه القوة فى الخلق الفردى والاجتماعى ، وفى شىء آخر هو النشاط العام للأمم فى مختلف نواحى النشاط .

أول ما تبثه قوة الجيش فى نفس الفرد من شعور ، هو إحساسه بنوع من العظمة القومية يمنعه من التبذل و إتيان مقابح فى تصرفاته يترفع عنها كل من يحس بأنه من أمة عظيمة و إذا نمى هذا المعنى فى بعض الأحيان فإن مجرد تذكيره به كاف لإقلاعه عن تصرفه المعيب وإحساسه بالخجل من التبذل المحتقر .

كنت فى قطار للركاب وكان به بعض الجنود الانجليز السكارى ، وقد قام بينهم مزاح عنيف جعلوا يتبادلون فيه القذائف من قشر البرتقال والكلمات الطائشة والهرج والمرج إلى حد مزعج .

ولم تدم هذه الحالة خمس دقائق حتى رأيت سيدة انجليزية تنتقل من مقعدها البعيد إلى حيث هؤلاء الجنود السكارى ، وتوجه اليهم جملة واحدة ، فى ثبات ورزانة "هذا لا يليق بانجليزى" "This not the behaviour of an English man" .

وما كان أشد دهشتى ودهشة الركاب حين سادت السكينة هؤلاء الصاخبين ، وحين أطرقوا جميعهم خجلين ، بينما السيدة الجريئة تعود إلى مقعدها لتعاود القراءة فى كتاب كانت مستغرقة فى قراءته .

" هذا لا يليق بانجليزى " . ذلك هو مفتاح الكرامة الوطنية الذى أدارته السيدة فى كل قلب من قلوب السكارى فإذا بهم يفيقون ، ولولا شعور كل فرد منهم بعظمة الأمة التى ينتسب اليها ما كان لهذا التنبيه معنى خاص فى نفسه ، ولا شك أن لقوة الامبراطورية التقليدية دخلا فى تكوين هذا الشعور ، الذى يدعو الانجليزى للاحتفاظ بشخصيته وقوميته و بيئته حيثما ذهب . بحيث يكفى أن يوجد انجليزيان فى أية بقعة من الارض ليتكوّن منهما ناد انجليزى !

وقد جاءت الأخبار بأن الأسرى الألمان كانوا يرفضون فى كل مكان الإقامة مع الأسرى الطليان لشعورهم بالترفع نتيجة لمعرفتهم بقوة الجيش الألمانى الذى ينتسبون إليه ، وأن سلوكهم على العموم كان مغيرا من سلوك زملائهم للسبب نفسه .

وقوة الجيش تبث فى نفس كل فرد خلق الشجاعة لشعوره بأن الجيش هناك فى الصفوف الأمامية يحميه و يدفع الأذى عنه ، وللشجاعة آثار خلقية طيبة فى النفس الإنسانية ، ولكن مزاياها تبدو على أتمها فى أوقات الأزمات والمخاوف التى تمتحن بها الأمم فى هذه الأيام .

فاذا خرجنا من الدائرة الفردية إلى دائرة الجماعة وجدنا هذه الفضائل الشخصية تؤثر فى المجتمع أحسن تأثير ، فاعتزاز الفرد بوطنه خليق بأن يولد فى نفسه شعورا اجتماعيا راقيا بحقوق المجتمع عليه وبالتضامن مع هذا المجتمع العظيم العزيز الجانب ، ومعظم الرذائل إنما تنشأ من استهتار الفرد بالمجتمع و بالوطن الذى يعيش فيه .

على أن هناك أثرا أوضح من هذا وأسهل إدراكا ، لأن الأرقام تشهد به وتؤيده فقوة الجيش فى أمة من الأمم خليقة أن توجد نوعا من الاطمئنان والاستقرار يبدو أثره فى الحياة الاقتصادية من نواح كثيرة :

(أولا) فى ثبات أسعار السندات والنقد لهذه الأمة ، ومعنى هذا زيادة الثروة القومية أو الاحتفاظ بمستواها . ونحن نلاحظ أن الأسواق المالية تتبع بحساسية شديدة مراكز الأمم المتحاربة ، بل تتبع المواقع الحربية وما يتم فيها من نصر أو هزيمة .

و(ثانيا) فى إقدام الأفراد والهيئات على التعامل والمضى فى المشروعات الاقتصادية أو إنشاء المشروعات الجديدة كلما اطمأن الشعب إلى قوته الحربية ووثق من كفايتها لترجيح كفته فى النضال ، و بذلك تكون قوة الجيش سببا فى ثبات الاقتصاد القومى وازدهاره .

وإذا كان هذا شأن الجيش فى كل بلد من بلاد العالم ، فان له فى مصر فوق ذلك شأنا خاصا ، ذلك أنه يعد مصحة تشفى من الأمراض المتوطنة وسواها كما يعد معهدا للتربية الاجتماعية والفردية .

فالمعروف أن الحالة الصحية فى مصر أسوأ ما عرف عن أمثالها فى العالم ، والبيئة الاجتماعية التى نستورد منها جنودنا هى فى الغالب بيئة الفقراء الذين يعجزون عن أداء البدل النقدى الذى لا نزال حتى اليوم مع الأسف نعترف به و إن كان فى طريقه الى الإلغاء .

والجيش يتسلم هؤلاء المرضى فيصحح أبدانهم ويداوى أمراضهم ويخرجهم شبانا أصحاء أقوياء ، ثم هو فوق ذلك كله يرفع مستواهم الاجتماعى والفكرى درجات فيعودهم النظام والنظافة والتغذية الصحية وكثيرا من آداب السلوك .

ويمكن أن يلحظ ذلك بوضوح فيمن يعودون من حياة الجندية بعد قضاء مدتها إلى الريف ، فهم عادة لا يكتفون برقيهم الشخصى ، بل ينقلون إلى أسراتهم وأوساطهم الريفية تلك العادات الطيبة التى تعلموها فى أيام الجندية .

ومن هنا كانت الجندية تربية اجتماعية حبذا لو أتحناها لكل فرد ؛ ولكى ننتفع بالجيش إلى أقصى حد اجتماعى وخلقى ونفسى يجب أن نسرع فى إقرار قانون التجنيد العام ، الذى لا يزال قيد البحث منذ أعوام .

فهناك حقيقة لا يصح إغفالها ، وهى أن الملابسات التى يحيط بها القانون القديم حياة الجندية غير لائقة ، بل هى معطلة للكثير من مزايا هذه الحياة .

الجندية فى فرنسا مثلا إلزام وضريبة وطنيـة ترتفع إلى مرتبة الفخر والشرف ، وقبل الحرب كانت فى انجلترا ، كما هى الآن فى امريكا ، صناعة ككل الصناعات يختارها الأفراد كما يختارون الصناعات الحرة ، لأن مرتبها كالمرتبات الأخرى فى مختلف الأعمال ينهض بالحياة لمن يحترفها .

أما فى مصر فليست إلزاما وطنيا وليست صناعة حرة ، لأن القانون يعفى منها كل من يستطيع دفع البدل النقدى الصغير ، ثم هى لا تعوض المجندين ماديا بما يشعرهم أنهم يختارونها طريقا للحياة بينما طول مدتها يؤثر فى حياتهم الاقتصادية والعائلية .

ولهذه الأسباب بلغت نسبة الفرار من الجنـدية حدا مزعجا لا يليق بالكرامة الوطنية . وكان التجنيد — ولا يزال فى بعض الأوساط — كارثة تقابل بالنحيب والعويل .

إن نفقات الجيوش باهظة — وبخاصة فى هذه الأيام — ولكن لهـا ما يقابلها من هذه المزايا التى أسلفت الحديث عنها ، تلك المزايا التى يجب أن نسـتزيد منها بإزالة العقبات التى تقف فى طريقها بسبب الإعفاء من الجندية وطول مدتها على السواء .

ولعل فكرة " الجيش المرابط " أصلح فكرة للانتفاع بمزايا التجنيد بأقل النفقات ، ولكن بقاء عدد من المقترعين فى الخارج لأنهم أدوا البدل النقدى ، يعصف بكل المعانى الطيبة فى حياة الجنـدية ويخلق نظام الطبقات ، وهو تفريق لا معنى له فى ضريبة الدم التى هى واجب وشرف فى آن ما